آية (وَمَا عَلَّمْنَاهُ ٱلشِّعْرَوَمَا يَنْبَغِي لَه) دراسة تفسيرية نقدية

أ.د. محمد محمود السواعدة*

تاريخ وصول البحث: 2024/4/22م تاريخ قبول البحث: 2024/7/10م

الملخص

يهدف هذا البحث المعنون بـ آية وما علمناهُ الشعر وَمَا يَنْبَغِي لَهُ دراسة تفسيرية نقدية إلى دراسة أقوال المفسرين لهذه الآية، والموازنة بينها، والكشف عن أوجه الصواب فيها، وإبراز المعاني الأوفق مع مقاصد القرآن الكريم وسياقه، ومع الواقع اللغوي القائم بالنبي.

وتأتي أهمية إثارة موضوع آية الباب من جهة التصدي لما اشتهر في بعض كتب التفسير، وفي مجالس دروس التفسير أيضاً، من دعاوى مخالفة لمقاصد القرآن وسياقه وصحيح الأخبار المتعلقة بالآية، وتذهب إلى أن النبي صلى الله عليه وسلم لا يحسن الشعر ولا يقيم أوزانه.

واعتمد البحث المنهجين: التحليلي والمقارن في سبيل الوصول إلى النتائج المرجوة، حيث انطلق من مناقشة عبارات المفسرين في تناولهم للآية، وتحليلها ومقارنتها بما قيل في معناها من كتب التفسير.

وتوصل البحث إلى أن دفع موهم معنى آية الباب، يكمن ابتداء في إعمال معاني الروايات المقبولة المتعلقة بتفسيرها، واستثناء المردود منها، وإقامة الدليل على الوجه الراجح من أقوال المفسرين في معناها.

الكلمات الدالة: الشعر؛ الرسول والشعر؛ سورة يس.

* أستاذ دكتور، كلية أصول الدين، جامعة العلوم الإسلامية العالمية.

The Verse "And We Did Not Give Prophet Muhammad, Knowledge of Poetry, nor is it Befitting for Him". A Critical Interpretive Study.

Abstract

This research, entitled "The Verse "And We Did Not Give Prophet Muhammad, Knowledge of Poetry, nor is it Befitting for Him" A Critical Interpretive Study," aims to study the commentators' statements about this verse, balance them, uncover aspects of what is correct in it, and highlight the meanings that are most consistent with the purposes and context of the Holy Qur'an, and with the linguistic reality of the Prophet.

The importance of researching this topic comes from the aspect of confronting what is known in some books of interpretation, and in the councils of interpretation lessons as well, of claims that contradict the purposes of the Qur'an, its context, and the authentic reports related to the verse, which claim that the Prophet did not improve poetry and did not evaluate its meters.

The research adopted two approaches: analytical and comparative in order to reach the desired results, as it started from discussing the commentators' statements in their treatment of the verse, analyzing and comparing them with what was said about its meaning in the books of interpretation.

The research concluded that rejecting the illusion of the meaning of the verse of the chapter lies, first of all, in implementing the meanings of the accepted narrations related to its interpretation, and excluding what is rejected from them, and established the evidence based on the most likely view from the commentators' sayings regarding its meaning.

Keywords: Poetry; The Messenger and poetry; Surah Yasin.

المقدمة:

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وآله وصحبه وسلم، وبعد:

فإن القرآن الكريم سيد الأذكار، ونور السرائر والبصائر، أودع الله فيه من الحكم والعلوم ما ينبه الساهي، ويذكر اللاهي، فشموس خيره لا تغرب، ومعين عيونه لا تنضب، فطوبى لمن أفنى عمره في التقاط لآلئه المكنونة، وذخائره المصونة.

ولعل أسلم السبل إلى إحراز هذه الكنوز وتحصيلها، تفحص تركة أسلافنا الصالحين، واللبث مع الموجود من ركاز ساداتنا وعلمائنا السابقين، رضي الله عنهم أجمعين، فإنهم قد حازوا من العلوم أشرفها، وأتقنوا من الفنون أنفسها، غير أنهم اختلفت آراؤهم في مواطن من تفسير كتاب الله تعالى، وتفاوتت فهومهم في إدراك بعض مراد الله في كتابه العظيم، مما ألقى على عاتق المتدبرين لكتاب الله في كل عصر مؤونة التنقيح والتحقيق، والموازنة والمقارنة، من أجل تضييق الهوة وتقريبها؛ للوصول إلى دفع المشكل، وإبراز الأقوم.

هذا، وإن قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾ [69: يس]. قد أطالت بعض كتب التفسير البحث في بيان المراد منه، وأن جل هذه التفاسير -بناء على المتبادر من الآية- نحت نحو وصف النبي صلى الله عليه وسلم بأنه كان ممنوعاً من الذائقة الشعرية، وأنه لا يحسن التعامل مع الأشعار حين يتمثلها، وأوردوا في هذا الإطار عدداً من الأخبار والآثار التي تؤكد ذلك، وكان منها القليل من خالف هذا الاتجاه في كثير أو في قليل، كما سيظهر تفصيل ذلك في ثنايا أوراق هذا العمل، فكان بيان ذلك هو الدافع الأساس من اختيار هذا الموضوع، وهو المؤمل أن يسهم به هذا البحث المتواضع، واللهَ أسأل أن يجعل فيه النفع، وأن يجنبني الزلل، إنه ولي ذلك والقادر عليه، وهو حسبي ونعم الوكيل.

أهمية البحث:

يستمد هذا البحث أهميته من جهة ارتباطه المباشر بكتاب الله تعالى، ومن خلال الآتي:

1.من جهة ما اشتهر في بعض كتب التفسير وفي مجالس دروس التفسير من معاني مخالفة لمقاصد القرآن وسياقه وصحيح الأخبار المتعلقة بالآية.

2.كثرة الآثار التي رويت في تفسير هذه الآية، التي تفيد أن النبي ﷺ لم يكن يحسن الشعر.

3.بالنظر إلى الواقع اللساني والبياني للرسول ﷺ، فإن هذه الآية تعدّ من الآيات المشكلة التي تحتاج مزيد نظر وتدبر.

4.اختلاف المفسرين في المقصود بها يجعل بحث موضوعها أمراً محتماً.

مشكلة البحث:

يحاول البحث الإجابة عن السؤال الرئيس الآتي:

ما حقيقة عجز الرسول ﷺعن إنشاء الشعر وتمثله في ضوء تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾ [69: يس].؟

ويتفرع عنه ما يلي:

1.ما موقف المفسرين من قدرة الرسول ﷺعلى معرفة الشعر وأوزانه؟

2.ما أوجه التوافق والاختلاف بين أقوال المفسرين في معاني آية الباب؟

3.ما درجة صحة الروايات التي أخبرت بأن النبي ﷺكان لا يحسن قول الشعر، والروايات التي جاءت على عكسها.

4.ما الوجه الراجح من أقوال المفسرين في معنى آية الباب.

أهداف البحث:

يسعى هذا البحث لتحقيق الأهداف الآتية:

1.الوقوف على درجة صحة الروايات التي أخبرت بأن النبي ﷺ كان لا يحسن قول الشعر، والروايات التي جاءت على عكسها.

2.إعمال معاني الروايات الصحيحة المتعلقة بتفسير آية الباب، وإهمال المردود منها.

3.إبراز مواطن الخلاف والاتفاق بين المفسرين في تفسيرهم لآية الباب.

4.بيان الراجح من أقوال المفسرين في معنى آية الباب.

الدراسات السابقة:

ليس موضوع هذا البحث من قبيل موقف الإسلام أو الرسول ﷺ أو القرآن من الشعر، وليس -أيضاً- من قبيل حكم الشعر في الإسلام، فمثل هذه الموضوعات فوق أنها قتلت بحثاً وتكريرا، فقد تكاد تخرج عن الحصر كثرة، وإنما هو في دائرة ضيقة من زاوية أخرى مختلفة تماماً عن هذه الدراسات والموضوعات، فهي منضبطة في حدود إشكال البحث المتضمن: مناقشة كتب التفسير في دعوى عدم إقامة النبي لأوزان الشعر في ضوء تفسير آية سورة يس، لذا فإن الباحث لم يظفر بدراسة تصدت لبحث الموضوع بالشكل الذي عالجه هذا البحث، لكن هناك كتاب ألمح إلى الموضوع على سبيل التبع لا القصد، وأيضاً في غير مجال التفسير، وهو كتاب: البيان النبوي، لمؤلفه محمد رجب البيومي، وقد تكلم الكاتب فيه أصالة عن غزارة الأدب النبوي ومكانته، وعن

موقف النبي ﷺ من الشعر والشعراء، وخرّج ما جاء من أخبار في ذم الشعر والشعراء، وفي أثناء ذلك عرج على ما يشاع من القول بأن النبي كان لا يقيم وزن الشعر حين ينشده، وناقش -في هذه المسألة- أديبين كبيرين هما: الجرجاني من المتقدمين، والرافعي من المعاصرين، مناقشة لا تتجاوز الصفحة الواحدة لكل منهما، وهي لمسات نفيسة تذكر للكاتب، لكنها كانت لمسات عجلى، هذا أولاً، وثانياً: لم يعرض المؤلف لكتب التفسير، ولا لأقوال المفسرين لا من قريب ولا من بعيد، من هنا كان ميدانه غير ميدان هذا البحث. نعم لم أجد دراسة سابقة متخصصة في موضوع البحث.

منهج البحث:

اعتمد الباحث من أجل تحقيق نتائج هذا البحث على المنهجين: التحليلي والمقارن، حيث قمت بجمع المادة العلمية من مظانها المختلفة، ونقل كلام المفسرين عند تصديهم لآية الباب، ثم تحليل آرائهم ومقابلة بعضها ببعض من أجل الوصول إلى القول الراجح منها.

خطة البحث:

اقتضت طبيعة هذا البحث أن يشتمل على مقدمة، ومبحثين، وخاتمة، وذلك على النحو الآتي:

المقدمة: اشتملت على أهمية البحث، ومشكلته، وأهدافه، والدراسات السابقة له، والمنهج المُتبع فيه.

المبحث الأول: أقوال المفسرين وحججهم في معنى قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓ﴾ [69: يس]. المبحث الثاني: مناقشة أقوال المفسرين في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓ﴾ [69: يس]. الخاتمة: وفيها النتائج والتوصيات

المبحث الأول: أقوال المفسرين وحججهم في معنى قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓ﴾ [69: يس].

ذهب جمهور أهل التفسير إلى القول بأنه صلى الله عليه وسلم كان ممنوعاً من قول الشعر ترديداً أو إنشاءً، وأن الله تعالى طبعه على ذلك صيانة له ودفعاً للشبهة عن القرآن، مستندين إلى قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓ﴾ [69: يس]. وفيما يلي بيان لخلاصة أقوالهم وأدلتهم التي استندوا عليها فيما ذهبوا إليه:

المطلب الأول: خلاصة أقوال المفسرين في تفسير الآية

روى المفسرون في سبب نزول هذه الآية أن كفار مكة قالوا: إن محمدًا شاعر، وما يقوله شعر، فأنزل الله تكذيبًا لهم: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾ [69: يس]. أي: ما يتسهل له ذلك. (1)

وأوردوا في معناها وجوهاً من المحتملات، منها: أن قوله: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾ [69: يس]. أي ليس الذي علمناه من القرآن شعراً. أو تعني: لم نعلم رسولنا أن يقول الشعر، وأن معنى وَمَا يَنْبَغِي لَهُ}: أي: وما ينبغي له أن يقول شعراً، أو وما ينبغي لنا أن نعلمه شعراً، ومعنى قوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾ [69: يس] معناه: إنْ علمناه إلا ذكراً وقرآناً مبيناً، أو: إنْ هذا الذي يتلوه عليكم إلا ذكر وقرآن مبين (2).

ويذكر عامة المفسرين أن هذه الآية جاءت في سياق الرد على ما ادّعاه المشركون من وصف النبي- ﷺ- بأنه شاعر، ووصف القرآن الذي جاء به بأنه شعر، لكنهم اختلفوا في كونه ﷺيحسن الشعر ويجيده أم لا.

ومع اتفاقهم على أنه ﷺأوتي فصاحة وبلاغة بزّ بها كل سابق، وعجز عن أن يدانيها لاحق - فقد "كان صلى الله عليه وسلم من الفصاحة والبيان في النثر في المرتبة العليا" كما قال ابن عطية(3) - مع هذا إلا أن أكثر أهل التفسير ذهبوا إلى أنّه ﷺ وسلم لا يحسن الشعر، وأنه كانَ ممنوعاً مِن إنشاءِ الشعر، فلم يكُن شاعراً، ولم يكُن ذا ملكةٍ شعريّة، وذلكَ لقولِه تعالى: :﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾[69: يس]، وقولِه: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴾ [٤١: الحاقة] فمعنى وَمَا يَنْبَغِي لَهُ "أَيْ: وَمَا هُوَ فِي طَبْعِهِ، فَلَا يُحْسِنُهُ وَلَا يُحِبُّهُ، وَلَا تَقْتَضِيهِ جِبِلَّته؛ وَلِهَذَا وَرَدَ أَنَّهُ، عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، كَانَ لَا يَحْفَظُ بَيْتًا عَلَى وزنٍ مُنْتَظِمٍ، بَلْ إِنْ أَنْشَدَهُ زَحَّفه(4) أَوْ لَمْ يُتِمَّهُ"(5).

واجتلبوا في هذا الإطار روايات كثيرة، مفادها أنه ﷺ كانَ إذا تمثّلَ ببيتِ شعرٍ لبعضِ الشعراءِ كسرَ وزنَه، وتصرف به بما يخل برصفه تقديماً وتأخيراً، وكان يصحح له أحد الحاضرين خطأه، -وغالباً ما يكون أبا بكر- مستدلاً على هذه الحالة بمضمون آية الباب: من أن الله لم يعلمه الشعر ومنعه إياه.

وذكر بعض المفسرين في سياق تفسير الآية روايات عن الرسول ﷺ-أيضاً- في ذم الشعر، حيث استقصى كثير منهم كالثعلبي، وابن عطية، والقرطبي، وأبو حيان، وابن كثير، والألوسي،

وغيرهم، مجموعة كبيرة من هذه الروايات [6]، بل إن ابن عطية جعل هذه الآية تصب في وادي ذم الشعر حين قال: "وهذه الآية تقتضي عندي غضاضة على الشعر ولا بد"[7]، وهو رأي لم يتجه عند أبي حيان حين قال: "وَقِيلَ: فِي هَذِهِ الْآيَةِ دَلَالَةٌ عَلَى غَضَاضَةِ الشِّعْرِ"[8] فعبر عنه بـ(قيل) المشعر بضعف ميل ابن عطية.

لكنهم رووا بجانب ذلك -أيضاً- أنه ﷺ أنشد شعراً مستقيماً، جعله بعضهم في حكم النادر [9]، سواءً أكان إنشاءً أم حكاية وترديدا، كما رووا أنه ﷺاستمع للشعراء، وأنه أبدى رأيه ببعض الأشعار ونقدها، وأنه استنشد بعضهم مما قالوا من الشعر، وأنه كان له من أصحابه شعراء فحول، وأنه حثهم على قول الشعر دفاعاً عن الإسلام، ووصف شعرهم -في مواطن عديدة- بما يمتدحون به لا بما يذمون [10].

وحيال هذا الكم المتدافع من الأخبار المنبئة عن إشكال حقيقي يتعلق بحال النبي ﷺ مع الشعر قوّة وضعفاً، راح هؤلاء المفسرون يخرّجونها ويسوغونها بما يوجه معانيها ويدفع عنها هذا الإشكال، مع تمسك جمهورهم بالاتجاه الذي يرى أنه ﷺلا يحسن قول الشعر.

ويظهر أن الدافع الأبرز للقول بذلك ما وجد من روايات تتفق وصريح القرآن في نفي الشعر عن النبي ﷺ، ثم انصب التأويل على ما خالف هذا المعنى من أخبار، فما جاء على لسانه ﷺ مستقيماً كان اتِّفَاقِياً مِنْ غَيْرِ تَكَلُّفٍ وَقَصْدٍ، كما أَنَّ الْخَلِيلِ لم يعدَّ الْمَشْطُورَ مِنْ الرَّجَزِ شِعْرًا[11]، فقد وافقت بعض الآيات أوزان الشعر وليست بشعر، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: 92]، وقوله: ﴿نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾ [الصف: 13]، وقوله: ﴿وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ﴾ [سبأ: 13] إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ التي ذكروها في هذا الشأن[12]. . وَمثلها -أيضاً- كلام الناس الذي قد يوافق الوزن، فكَثِير "مِنَ النَّثْرِ الَّذِي تُنْشِئُهُ الْفُصَحَاءُ وَلَا يُسَمَّى ذَلِكَ شِعْرًا، وَلَا يَخْطُرُ بِبَالِ الْمُنْشِئِ وَلَا السَّامِعِ أَنَّهُ شِعْرٌ"[13].

وكان السبب -عند قوم- في عدم تعليم الله الشعرَ له ﷺ؛ لأنّ مثل هذا مدخل للشبهة في القدرة على افتراء القرآن[14]، ولم يرتض مثل هذا التخريج آخرون كابن عطية الذي قال: "ليس الأمر عندي كذلك، وقد كان النبي ﷺ من الفصاحة والبيان في النثر في المرتبة العليا، ولكن كلام الله تعالى يبين بإعجازه ويبرز برصفه ويخرجه إحاطة علم الله من كل كلام، وإنما منعه الله تعالى من الشعر ترفيعا له عما في قول الشعراء من التخييل، وتزويق القول، وأما القرآن فهو ذكر لحقائق وبراهين، فما هو بقول شاعر، وهكذا كان أسلوب كلامه عليه السلام لأنه لا ينطق عن الهوى، والشعر نازل الرتبة عن هذا كله"[15].

من هنا تبين أن فريقاً من المفسرين -وإن كانوا قلة- ذهبوا إلى أنه ﷺكان يحسن الشعر، وهو غير ممنوع منه، لكنهم -أيضاً- تمايزت آراؤهم ولم يتفقوا على وجه واحد يجمعهم، فقالوا إنما منع من معاطاته، وما جاء من أخبار تفيد خلاف ذلك وجهوها بما يدفع رأي الاتجاه الأول، وخرجوها على معنى القصد والتعمد منه ﷺ، فكل وزن جاء مكسوراً وقع كذلك "لإرادته الأمر على صحة المعاني التي يأمره الله (تعالى) بها في الكلام البليغ، من غير تعريج على قصد نظم ولا سجع"[16]، كما قال البقاعي، وسيأتي في الجانب النقدي -من هذا البحث- ما يرتسم به حدود هذا الاتجاه، ويتضح به الراجح من وجهة نظر الباحث.

المطلب الثاني: الشواهد الشعرية التي ذكرها المفسرون في تفسير الآية

كان لروايات الشواهد الشعرية أثر كبير في انتهاج كثير من المفسرين عند تفسيرهم لآية الباب منهج القول بضعف الذائقة الشعرية للرسول ﷺ، وبخاصة أن هذه الروايات تتناغم وظاهر الآية القرآنية موضوع هذا البحث، وسيعرض البحث لأبرز الأشعار التي دارت في كتب التفسير، سواء أكانت ترديداً أم إنشاءً، وسواء أجاء وزنها صحيحاً أم مكسوراً، على النحو الآتي:

أولاً: روي أَنَّ عَائِشَةَ سُئِلَتْ: أَكَانَ النَّبِيُّ ﷺيَتَمَثَّلُ بِشَيْءٍ مِنَ الشِّعْرِ؟ قَالَتْ: كَانَ الشِّعْرُ أَبْغَضَ الْحَدِيثِ إِلَيْهِ، قَالَتْ: وَلَمْ يَتَمَثَّلْ بِشَيْءٍ مِنَ الشَّعْرِ إِلَّا بِبَيْتِ أَخِي بَنِي قَيْسٍ - تَعْنِي - طَرَفَةَ: سُتُبْدِي لَكَ الْأَيَّامُ مَا كُنْتَ جَاهِلًا ... وَيَأْتِيكَ بِالْأَخْبَارِ مَنْ لَمْ تُزَوِّدِ. فَجَعَلَ يَقُولُ: «يَأْتِيكَ مَنْ لَمْ تُزَوِّدِ بِالْأَخْبَارِ» فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: لَيْسَ كَذَلِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَقَالَ: «إِنِّي لَسْتُ شَاعِرًا وَلَا يَنْبَغِي لِي»[17].

ثانياً: روي أنّه ﷺكان يتمثل بهذا البيت: «كفى بالإسلام والشيب للمرء ناهيا» فقال أبو بكر: يا نبي الله، إنما قال الشاعر: كفى الشيب والإسلام للمرء ناهيا، فقال أبو بكر أو عمر: أشهد أنك رسول الله، يقول الله عز وجل: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾ [69: يس]. [18].

ثالثاً: ما ورد أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺقَالَ: لِلْعَبَّاسِ بْنِ مِرْدَاسٍ السُّلَمِيِّ: "أَنْتَ الْقَائِلُ: أَتَجْعَلَ نَهبِي ونَهْب العُبَيد بَيْنَ الْأَقْرَعِ وَعُيَيْنَةَ"، فَقَالَ: إِنَّمَا هُوَ: "بَيْنَ عُيَيْنَةَ والأقرع" فقال: "الكل سواء" يَعْنِي: فِي الْمَعْنَى، صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ [19].

رابعاً: وروي عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ مَا جَمَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَيْتَ شِعْرٍ قَطُّ إِلَّا بَيْتًا وَاحِدًا: تَفَاءَلْ بِمَا تَهْوَى يَكُنْ فَلَقَلَّمَا... يُقَالُ لِشَيْءٍ كَانَ إِلَّا تَحَقَّقَ، قَالَتْ عَائِشَةُ لَمْ يَقُلْ تَحَقَّقَا لِئَلَّا يُعْرِبَهُ فَيَصِيرَ شِعْرًا [20].

خامساً: وقال منشئاً أيضاً: هَلْ أَنْتَ إِلَّا أُصْبُعٌ دَمِيتِ ... وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ مَا لَقِيتِ [21]

سادساً: وأنشد مع أصحابه مرتجزاً: اللهمَّ إنَّ العيشَ عيشُ الآخرة * فاغفِر للأنصارَ والمهاجرة، أو: اللهمَّ لا عيشَ إلّا عيشُ الآخرة * فأكرِم الأنصارَ والمُهاجرة [22]

سابعاً: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ: إِنْ تَغْفِرِ اللَّهُمَّ تَغْفِرْ جَمًّا ... وَأَيُّ عَبْدٍ لَكَ لَا أَلَمَّا [23].

ثامناً: قال رسول اللَّه ﷺ: أصدق كلمة قالها شاعر كلمة لبيد: ألا كل شيء ما خلا اللَّه باطل [24]، وكاد أميّة بن أبي الصلت أن يسلم) [25].

تاسعاً: وأنشأ ﷺيوم حنين قائلاً: أَنَا النَّبِيُّ لَا كَذِبْ ... أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبْ [26].

عاشراً: وسمع النبي ﷺ رجلاً يقولُ: يا أيُّها الرجلُ المُحوّلُ رَحْلَهُ ... أَلا نزلتَ بآلِ عبدِ الدارِ، قالَ: فالتفتَ رسولُ اللهِ ﷺ إلى أبي بكرٍ فقالَ: «هكذا قالَ الشاعرُ؟» قالَ: لا والذي بعثَكَ بالحقِّ، لكنَّه قالَ: يا أيُّها الرجلُ المُحوّلُ رَحْلَهُ ... أَلا نزلتَ بآلِ عبدِ منافِ؟

قالَ: فتبسمَ رسولُ اللهِ ﷺ وقالَ: «هكذا سمعتُ الرواةَ يُنشدونَه» [27].

حادي عشر: وَقِيلَ له ﷺ: مِنْ أَشْعَرِ النَّاسِ؟ فَقَالَ الَّذِي يَقُولُ: أَلَمْ تَرَيَانِي كُلَّمَا جِئْتُ طَارِقًا ... وَجَدْتُ بِهَا وَإِنْ لَمْ تَطَيَّبِ طِيبَا [28]. مقلوبة هكذا.

هذه جملة ما جاء من أخبار الأشعار التي تناقلتها كتب التفسير في تفسير الآية، وسيأتي بيان حالها عند الترجيح بين الأقوال في المبحث التالي إن شاء الله.

المبحث الثاني: مناقشة أقوال المفسرين في تفسير قوله تعالى: {وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَوَمَا يَنْبَغِي لَهُ} [69: يس]

يحسن ابتداء الإشارة إلى ما ورد في كتب التفسير من عبارات تتصل بتفسير الآية، وتفيد بأنه ﷺ كان لا يحسن الشعر، أو يكسر الوزن، أو مصروفاً عن معاطاة الشعر، أو أنه لم يعط طبيعة شعرية، أو أنه كسر الوزن طلباً للمعنى، لا جهلا منه بما يصلح به الشعر، فليس مقاس هذه العبارات واحداً، لأنه قد يكون القصد من كونه ﷺ مصروفاً عن معاطاته: قدرته على إقامته ونقده وإنشائه وحفظه، وهكذا.

المطلب الأول: ما كان عليه النبي ﷺ من الفصاحة والبلاغة.

لعل أول موارد التصدي للإبهام في هذا الموضع، الذي يمكن به دفع هذا الإشكال وملابساته، ليقف حائلاً أمام التسليم بالقول بأنه ﷺ كان لا يقيم وزن الشعر، تلك الملكة اللسانية التي كان ممتعاً بها ﷺ، لذا فقد تصدى ابن عطية لمثل مقولة: إنما منعه الله من إدراك الشعر لئلا يقال في القرآن إن هذا من تلك القوى، بقوله: "وليس الأمر عندي كذلك، وقد كان النبي ﷺ من الفصاحة

والبيان في النثر في المرتبة العليا"[29]، وقد أطال الألوسي الكلام في تقرير ما مال إليه ابن عطية في عبارته هذه[30].

هذا، وليس المؤمل من هذا المطلب الاستغراق في عرض ما كان عليه النبي من البلاغة واللسان، فمثل هذا مرجعه أسفار القوم وموسوعاتهم[31]، فليس الهدف الاسترسال بهذا الجانب بقدر ما هو تأكيد على بيان أن البلاغة التي حازها ﷺ أولى بالمنع من الشعر إن كانت العلة دفع الشبهة عن القرآن، "فكونه عليه الصلاة والسلام في المرتبة العليا من الفصاحة والبلاغة في النثر، ليس بأضعف من قول الشعر في كونه مظنة تطرق التهمة إليه، بل ربما يتخيل أنه أعظم من قول الشعر في ذلك، فلو كانت علة منعه عليه الصلاة والسلام من الشعر ما ذكر، لزم أن يمنع من الكلام الفصيح البليغ؛ سدا لباب الريبة، ودحضا للشبهة، وإعظاما للحجة"[32] كما قال الألوسي، بمعنى أنه لو كان تعلمه الشعر مدخلاً للشبهة، ومؤدياً للطعن في القرآن، لكان ما يتمتع به من الفصاحة والأدب الرفيع أولى بالطعن في القرآن وسلامته.

والحقّ أنه لا يختلف اثنان من أهل اللسان على أن النبي أوتي من البيان ما فاق به كل ناطق بالعربية، كما لا يختلفان -أيضاً- في أن النبي ليس شاعراً، ولم ينصب نفسه منافساً لهم، هذا أمر مفروغ منه، ولا يعاب به ﷺ، فليس العرب كلهم شعراء، ولكن يعاب العربي في تلك البيئة العربية بفهاهته حينما يردد بيت شعر ذائع الصيت، ثم تراه يتلعثم في التخلص منه، لأنه مما تقرر عند كل ذي لب وعلم -بمن فيهم كل من ذهب إلى أن النبي كان لا يحسن الشعر ولا يقيم وزنه- أن النبي نشأ بين قوم كانوا أفصح العرب ألسنة، وأخلصهم لغة، وأعذبهم بياناً؛ فأنضاده ﷺمن قراباته وعشيرته دانت لهم الأمم من جهة اللسان، وكانت المكانة اللغوية أحد أهم النواحي التي يقيّمون بها الأفراد والجماعات، وقد حصل ﷺ على القسط الأوفر من هذه التركة الموروثة، فقد كان منها "بِالْمَحَلِّ الْأَفْضَلِ، وَالْمَوْضِعِ الَّذِي لَا يُجْهَلُ، سَلَاسَةَ طَبْعٍ، وَبَرَاعَةَ مَنْزَعٍ، وَإِيجَازَ مَقْطَعٍ، وَنَصَاعَةَ لَفْظٍ، وَجَزَالَةَ قَوْلٍ، وَصِحَّةَ مَعَانٍ، وَقِلَّةَ تَكَلُّفٍ، أُوتِيَ جَوَامِعَ الْكَلِمِ، وَخُصَّ بِبَدَائِعِ الْحِكَمِ، وَعِلْمِ أَلْسِنَةِ الْعَرَبِ، فكان يُخَاطِبُ كُلَّ أُمَّةٍ مِنْهَا بِلِسَانِهَا، وَيُحَاوِرُهَا بِلُغَتِهَا، وَيُبَارِيهَا فِي مَنْزَعِ بَلَاغَتِهَا، حَتَّى كَانَ كَثِيرٌ مِنْ أَصْحَابِهِ يَسْأَلُونَهُ فِي غَيْرِ مَوْطِنٍ عَنْ شرح كلامه"[33].

كما أنه لم يشك أحد من أساطين البيان بما أوتيه من حد الكفاية البيانية، والسمو البلاغي، فقد حُفظ عنه ما هو أبعد من ذلك؛ إذ اخترق جدار الوضع اللغوي، وانتزع المذاهب البيانية التي لم تنقد لسواه، حتى كأنما كان يُلهَم الوضع إلهاماً، ويساق إليه الكلم فيختار أجوده وأحسنه،

فتراه قد "اقتضب ألفاظاً كثيرة لم تسمع من العرب قبله، ولم توجد في متقدم كلامها، وهي تعد من حسنات البيان، لم يتفق لأحد مثلها في حسن بلاغتها، وقوة دلالتها، وغرابة القريحة اللغوية في تأليفها وتنضيدها، وكلها قد صار مثلاً، وأصبح ميراثاً خالداً في البيان العربي"[34].

فمن هذه المبتكرات قوله: مَاتَ حَتْفَ أَنْفِهِ [35]، وقوله في الحرب: "الآن حميَ الوَطِيس [36]"، وقوله: " بُعْثُ في نَفَس الساعة [37].

وقد سرت تلك المبتكرات في اللسان العربي فيما بعد بسلاسة ودون امتعاض أحد من العرب أو إبداء استيحاش لها.

كما أن اجتماع الناس على وصف النبي بأعلى درجات البلاغة، منذ وجد إلى يومنا هذا، وعدم اختلافهم في ذلك، هو مظهر من مظاهر تدعيم القول: بأنه يستحيل أن ينال مثل هذه المرتبة إجماعاً، وهو لا يحسن إقامة وزن بيت شعر مشهور.

فالأجدر أن مثل هذه الظاهرة البارزة التي لا تخفى على ذي بصر -إن لم تكن حاسمة للأمر في بيان مراد الله تعالى من آية الباب- فلا أقلّ من أن تحتسب عند الموازنة بين أقوال المفسرين حين تناولهم لها.

المطلب الثاني: تفسير الآية في ضوء السياق.

اتضح من أقوال المفسرين في المبحث السابق أن هذه الآية جاءت للرد على دعوى كبراء قريش من وصف النبي- ﷺ - بأنه شاعر ووصف القرآن الذي جاء به بأنه شعر، وهذا الادعاء منهم لم يكن عن غفلة وعدم قدرة على التمييز بين الشعر والقرآن، لأنه يستحيل أن يخفى مثله عليهم وهم أساطين البلاغة، وصيارفة الكلام والبيان، إنما كان ادعاؤهم "طرفا من حرب الدعاية التي شنّوها على الدين الجديد وصاحبه- ﷺ - في أوساط الجماهير، معتمدين فيها على جمال النسق القرآني المؤثر، الذي قد يجعل الجماهير تخلط بينه وبين الشعر إذا وجهت هذا التوجيه، وهنا ينفي الله- سبحانه- أنه علم الرسول الشعر"[38]

فالآية نفت أن يكون ما علمه الله لنبيه من قبيل الشعر، وربأت به أن يتعاطى الشعر أو أن يُعرف به، ليس لجهل به، بل ترفعاً عنه، ولما امتزج فيه من التزويقات والتخييلات المقصودة لذاتها، فبينت أن القرآن ليس إلّا تذكيرا للناس وكلاماً واضحا بيّناً، ثم جاء التعقيب ببيان مهمة النبي ﷺ وهي إنذار الناس بالقرآن، فينتفع به من كان ذا عقل واع يميز الخير من الشر، وذا قلب حيّ سليم، ليحق القول وتثبت الحجة على المنكرين.

ومع ما يظهر من استقلال هذه الآية والتي بعدها بموضوعهما شيئاً ما، إلا أنهما لا يخرجان عن مقصد السورة وسياق مقطعهما من حيث إنه تنديد بالكفار، وحكاية لأقوالهم ومواقفهم، فهما فوق أنهما متعلقان بالسباق واللحاق، فقد جاءتا بمثابة تقرير لمهمة النبوة والهدف الأساس لما جاء به من الوحي[39].

وهذا المغزى لسياق الآية إجمالاً شديد التعلق بمناقشة ما قيل من أن مقصدها الأساس هو الدلالة على تعثر النبي في الشعر؛ دفعاً للشبهة عن القرآن؛ لأنه يشير إلى أن فحوى الآية متوجه نحو تمسك النبي ﷺ بما هو أرقى وأهم وأثبت، ولذا قال سبحانه ﴿وَمَا يَنۢبَغِي لَهُ﴾أي: "وما يصح ولا ينطلب ولا يتأتى أصلاً، لأن منصبه أجل، وهمته أعلى من أن يكون مداحاً أو عياباً، أو أن يتقيد بما قد يجر إلى نقيصة في المعنى، وجبلته منافية لذلك غاية المنافاة"[40]. فليس المقصود منه وصف النبي ﷺ بأنه ضعيف في سبك الشعر، وإنما الردّ على الطاعنين بالقرآن بأنه شعر، وأن من جاء به شاعر، وشتان ما بينهما.

المطلب الثالث: لمحة تاريخية حول تفسير الآية.

عند تتبع مداد يراع جهابذة التفسير المسطور حول معنى هذه الآية، يُلمح بوضوح تطور معنوي لما تفيده الآية، بيد أن هذا التطور لم ينتظم منطقياً، بمعنى أن كثيراً من اللاحقين لم يلتفتوا إلى بعض أقوال من سبقهم؛ لعل مثل هذا الاختلاف مرده إلى أمرين جليين يتصلان بهذا المضمون اتصالاً مباشراً، تكثر الإشارة إليهما في هذا البحث، أولهما: التعلق بظاهر الآية دون الاعتداد بسياقها القريب ومداها البعيد، وثانيهما: تعدد الروايات والأخبار التي تتواءم والمتبادر من الآية، بغض النظر عن إشكالات تفسير الآية وتحديد مناط معناها، كواقع النبي صلى الله عليه وسلم، وحاله من البلاغة والبيان مثلاً.

وممن استدل بآية الباب على تقرير ذلك الأديب الكبير مصطفى صادق الرافعي، فقد كتب حروفاً من نور حول بلاغة النبي ﷺ وسجاياه الأدبية[41]، وأطال النفس في تقرير ذلك حتى عرف به، ومع هذا فإنه لم يسلم من إيحاء ما تقرر عند جماهير الناس من عدم معرفة النبي للشعر، حتى توجه إليه النقد من بعض الكتّاب واستغربوا صنيعه هذا أيما استغراب، فقد نقل عنه البيومي قوله: "والذي عندنا، أنه - ﷺ- لم يمنع إقامة وزنِ الشعر في إنشاده إلا لأنه منع من إنشائه، فلو استقام له وزن بيت واحد، لغلبت عليه فطرته القوية، فمرَّ في الإنشاد، وخرج بذلك - لا محالة -إلى القول والاتساع، وإلى أن يكون شاعراً، ولو كان شاعراً لذهب مذاهب العرب التي

تبعث عليها طبيعة أرضهم... ثم لا يكون من جملته إلا أن ينصرف عن الدعوة، وعما هو أزكى بالنبوة وأشبه بفضائل القرآن؛ لأنه تعالى يعلم من غيب المصلحة لعباده، أنه - ﷻ - لو أقام وزن بيت لمال به عمود الدين، ثم لتصدع له الأساس الاجتماعي العظيم الذي جاء به القرآن"[42]، ثم كرّ عليه -أي البيومي- بالنقد والنقض بما يبطل التهمة فقال:

"ألا تعجب لرسول الله! أن تحضر مجلسه وفود العرب من شتى القبائل، فيحدثها أفصح حديث وأشهاه، ثم يستشهد ببيت شهير لطرفة مثلاً، فيخرج على لسانه مختل الأجزاء مضطرب الألفاظ! وهل سيصدق هؤلاء -وفيهم أعداؤه- أنه يكسر البيت كيلا يقدر على نظم مثله فيصير شاعراً، وهم يرون خطباءهم يرمون بالخطب الطوال، ويستشهدون بأبيات تؤكد معانيها وأغراضها، فلا يلحقهم هذا الاستشهاد الصحيح بطوائف الشعراء؟[43].

وأياً ما كان الأمر، فنواة الاتجاه الذي يرتئيه الباحث تكمن في قسمين: نواة مضمنة في بعض أقوال المفسرين القدامى منهم والمتأخرين، وذلك عند التمهيد بما تفيده الآية من أنها جاءت ردّاً على كبراء قريش الذين ادعوا أن القرآن شعر أتى به شاعر، إذ يفهم منه أنها بصدد تقرير مغايرة القرآن لما كانوا يدعونه فيه، وليس بصدد وصف النبي ﷺ بأنه لا يحسن الشعر، ونواة أخرى مصرحة في بعض أقوال قليل منهم، كقول ابن عطية في معارضته للقول بعدم معرفة النبي ﷺ للشعر، وثم تبلورها عند البقاعي بشكل يساعد اللاحق على امتطاء صهوة القول: بأن الأولى بالمفسر التوجه إلى تخريج الروايات والأخبار التي تناقض هذا الاتجاه -لو صحت- بدلاً من التسليم بمضمونها.

وإذا ما ضرب الذكر صفحاً عن أمة المتقدمين والمتأخرين من علمائنا المفسرين -لضيق المقام- فإن هناك تفاسير معاصرة قد أفادت من إشارات المتقدمين، واستثمرت إلماحات السابقين في مضمار بيان المقصود من الآية، لعل أبرزها: تفسيران، اتبع أحدهما سبيل اللون الأدبي في الطرح فأجاد وأفاد، وهو تفسير في ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب، إذ انتهج مسلك الإحجام عما أكثرت منه التفاسير من روايات حول ضعف الذائقة الشاعرية عند النبي ﷺ، فطفق -بدلاً عن ذلك- يوازن بين القرآن والشعر بأسلوبه المميز إلى أن قال: "فللشعر منهج غير منهج النبوة، الشعر انفعال وتعبير عن هذا الانفعال، والانفعال يتقلب من حال إلى حال، والنبوة وحي على منهج ثابت على صراط مستقيم، يتبع ناموس الله الثابت الذي يحكم الوجود كله، ولا يتبدل ولا يتقلب مع الأهواء الطارئة، تقلب الشعر مع الانفعالات المتجددة التي لا تثبت على حال، والنبوة اتصال دائم بالله، وتلق مباشر عن وحي الله، ومحاولة دائمة لرد الحياة إلى الله، بينما الشعر -في

أعلى صوره- أشواق إنسانية إلى الجمال والكمال مشوبة بقصور الإنسان وتصوراته المحدودة بحدود مداركه واستعداداته، فأما حين يهبط عن صوره العالية فهو انفعالات ونزوات قد تهبط حتى تكون صراخ جسد، وفورة لحم ودم، فطبيعة النبوة وطبيعة الشعر مختلفتان من الأساس، هذه- في أعلى صورها- أشواق تصعد من الأرض. وتلك في صميمها هداية تتنزل من السماء"[44].

ولكن يبقى ملحظ -هنا- حري بالإشارة، فمع ما لصاحب الظلال من تؤدة واسترشاد في بذل الأحكام، إلا أن هناك عبارة تدعو للتحفظ في هذا المقام، وهي قوله "وإذا كان الله لم يعلّمه فلن يعلم" وهي عبارة سليمة جداً في ذاتها، إذ يكثر مثلها في أسلوب سيد قطب، وبخاصة في مجال التقريرات العقدية التي تنسب الفعل الحقيقي في الكون كله إلى الله وحده، وأنه منه وحده -سبحانه- تستمد القدرات، وأنه -سبحانه- وحده فعّال لما يريد، لكن مع صحة هذه العبارة في ذاتها فإنها -من وجهة نظر الباحث- تحمل في طياتها ما يشبه النفور والمجافاة للمقام، وأن الأوفق بمثلها أن تدرج في تفسير مواضع أخر من تفسير آيات القرآن، من مثل قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ﴾ [282 : البقرة]، وقوله: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٖ فَلَا مُمْسِكَ لَهَاۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [2: فاطر]؛ لأن الله تعالى علّم نبيه -ﷺ- ما لم يكن يعلم، وكان فضله عليه عظيماً، بالإضافة إلى ما تضمنه هذا البحث من مدخلات، ومن بيان اتصافه ﷺ بتفوق لغوي يصب في هذا المسلك، والكامل الله في ذات وفي صفة.

وأما ثانيهما: فقد نحى نحو الميدان السياقي في مقام النظر إلى معنى الآية، من قِبل مداها القريب والبعيد، فأضاء جوانب مهمة تتعلق بالآية، وهو كتاب: التفسير الحديث للأستاذ دروزة، فقد أطال الكلام في تفسير الآية في ضوء سياقها، وتوصل إلى أنه "لا منافاة بين أن يتمثّل النبي صلى الله عليه وسلم ببعض الشعر بوزنه الصحيح، بل وأن يحفظ أكثر من بيت من شعر شعراء العرب الذي يجري على لسانه بعض أبيات على نمط الشعر المتواتر، وبين مدى الجملة القرآنية، وأن نفي ذلك عنه غير متّسق مع طبيعة الأشياء، من حيث إن النبي كان يعيش حياة العرب التي كان للشعر فيها حيّز كبير، وإن المدى الأوجه والأصح للجملة على ضوء ما تلهمه آيات سورة الشعراء التي أوردناها وشرحناها قبل قليل، هو أن النبي ﷺ قد صرف عن معاطاة الشعر، وأن ذلك لا يتناسب مع مهمة وجلال النبوّة"[45].

وهي نظرة ثاقبة تستحق التأمل والتدبر، وكلمة نافعة باح بها قلم الأستاذ دروزة في إطار مناقشة هذه المسألة.

المطلب الرابع: موازنة وترجيح.

دل اختلاف عامة المفسرين في المراد بالآية على أن هذا الموضع يعتريه نوع إشكال[46]، وتقدم أن السبب الأهم في تعاظم الإشكال هنا هو ما ورد عن النبي ﷺ من قول الشعر إنشاء أو ترديدا، لذا فإنه سيوازن هذا المطلب بين الأقوال المختلفة، وسيدرس هذه الأخبار دراسة نقدية بما يسمح به المقام.

وما هو غني عن التأكيد أن أهم ما تشبث به القائلون بأن النبي كان لا يحسن الشعر، هو ما ورد من روايات تؤيد ذلك، لكن ما هو حقيق بالتأكيد -هنا- أن بعض جهابذة التفسير لم يحفلوا بهذه الروايات، ولا حتى بما تفيده من معنى، منهم إمام المفسرين الطبري، فإنه حين فسر آية الباب أشار إلى حديث عائشة، وهو أمُّ هذه الروايات وأصلها، فلم يزد على قوله: "فيجعل آخره أوله، وأوله آخره"[47] دون ذكره مقلوباً.

وقد أكثر العلماء من توجيه النقد لحديث عائشة هذا الذي فيه: (من لم تزود بالأخبار)، فمن مشكلِهِ ما ذكر فيه من القصر على هذا البيت، وأنه لم يتمثل النبي -ﷺ- إلا به، فقد جاء ما يخالفه عَنْ عَائِشَةَ أيضاً قالت: مَا جَمَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَيْتَ شِعْرٍ قَطُّ إِلَّا بَيْتًا وَاحِدًا: تفاءل بما تهوى تكن فَلَقَلَّ مَا ... يُقَالُ لِشَيْءٍ كان إلا تحقق..

قَالَ الْبَيْهَقِيُّ عن هذا الخبر -أيضاً- "لَمْ أَكْتُبْ إِلَّا بِهَذَا الْإِسْنَادِ، وَفِيهِ مَنْ يُجْهَلُ حَالُهُ، وَقَالَ الْخَطِيبُ: غَرِيبٌ جِدًّا" [48].

وذكروا أن إسناد هذا الخبر (من لم تزود بالأخبار) منقطع، فقد روي عن عائشة بلاغاً، وهو ضعيف؛ لأنه رواه عن قتادة معمر، قال مالك: أَيُّ رَجُلٍ مَعْمَرٌ لَوْ سَلِمَ مِنْ خَصْلَةٍ، قالوا :ماهي يا أبا عبد الله؟، قال: تفسير القران عن قتادة، وقال الحافظ الذهبي: "ما نزال نحتج بِمَعْمَر حَتَّى يلوح لنا خَطؤُهُ بمخالفة من هُوَ أحفظ مِنْهُ، اَوْ نعده من الثِّقَات"[49].

وهو خبر منكر، فبالإضافة إلى ما تقدم من إشكال الحصر الذي يعني نكارته، فإنه مخالف الصحيح الثابت المروي بوزنه كما هو دون تقديم ولا تأخير، إذ المحفوظ من هذا الحديث: ما روي عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا اسْتَرَاثَ الْخَبَرَ، تَمَثَّلَ فِيهِ بِبَيْتِ طَرَفَةَ: وَيَأْتِيكَ بِالأَخْبَارِ مَنْ لَمْ تُزَوِّدِ دون قلب، قال الترمذي: «هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ» [50]، أيضاً جاء في هذه الرواية الاستشهاد بالبيت تامَّاً، مع أن الثابت الصحيح أنَّه تمثَّل منه بعجزه فحسب [51].

وما قيل من أن الذي صدر عنه ﷺ من قبيل الرجز، والرجز ليس بشعر، فقد رده بعض العلماء وقالوا: "لَا يَخْفَى مَا فِيهِ مِنْ الْمُصَادَرَةِ وَالتَّحَكُّمِ"[52].

وَأَمَّا مَا جاء مِنْ مُرْسَلِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ أَنَّهُ ﷺ تمثل بقوله: كَفَى بِالْإِسْلَامِ وَالشَّيْبِ نَاهِيًا، فكسره وصححه لَهُ أَبُو بَكْر، فَأَعَادَهَا كَالْأَوَّلِ، فقد ذُكر أنه فوق إرْسَالِهِ هو ضَعْيفٌ [53].

ومن جهة أخرى فإن هناك روايات متعددة تدل على أنه ﷺ تمثّل الشعر، وقاله إنشاءً وترديداً صحيحاً دون كسر، كقوله يوم حنين: أَنَا النَّبِيُّ لَا كَذِبْ ... أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبْ [54]، وغيرها من الأشعار المذكورة والمخرجة سابقاً، والأمر الأهم في الموازنة بينها وبين الاستدلالات التي تذكر أنه صلى الله عليه وسلم كان لا يحسن الشعر، ما اتضح من حال هذه الشواهد صحة وضعفاً، وكان الأحرى أن يتوجه النظر إلى هذه الروايات، وأن تسبر بميزان النقد الحديثي قبل الاعتداد بها.

لذا تنبه بعض ساداتنا المفسرين إلى هذا الملمح، وأحجموا عن ذكر هذه الروايات، أو ذكروا منها رواية واحدة على سبيل بيان ما يقال في الآية كالإمام الطبري كما تقدم.

لأجل ذلك قال صاحب التفسير الحديث عن الفوج الأول من هذه الروايات: "وهذه الأحاديث لم ترد في مساند الأحاديث الصحيحة"، ثم شرع في ذكر الصحيح منها، ثم قال: "وكل هذا شعر موزون على نمط الشعر العربي المتواتر"[55].

ولا يبعد -وهذه حال تلك الآثار- أن تكون هذه الروايات مدخولة ومزعومة من تلقاء رد مطاعن الطاعنين في سلامة القرآن، ومن عند بعض المتصدين لشبهات الملاحدة والمشككين، ففي كتب القوم كثيرا ما ترد مثل هذه الروايات على سبيل إثبات نص القرآن وإعجازه، أشبه بعمل القصاصين في الزمن الأول، يضعون الرقائق ويقولون نضعها للرسول لا عليه.

وما رجحه السُّهَيْلِيُّ فِي "الرَّوْضِ الْأُنُف [56]" من أن تقْدِيم الأقرع على عيينة كان مقصوداً، وذلك لشرف الأول على الثاني، فقد استغرب ابن كثير هذا التخريج مستبعداً له [57].

وهذا الاستغراب في مكانه، إذ الشواهد التي ادعي أن النبي -ﷺ- كسر وزنها متعددة، وليس كلها يصلح للتعليل، فمثلاً كيف يمكننا تعليل الكسر الوارد في قوله: وَجَدْتُ بِهَا وَإِنْ لَمْ تُطَيَّبْ طِيبَا؟

وأما ما قيل بأن هناك آيات جاءت على وزن الشعر، فقَدْ استقصى ابْنُ الْعَرَبِيِّ هذه الآيات التي نسبوها إلى بحور الشعر، وأخرجها كلها عن وزن البحور المعروفة [58].

هذه خلاصة الموقف المختار تجاه ما جاء من أخبار الأشعار التي تناقلتها كتب التفسير في تفسير الآية، وهي تفيد أن الثابت المحفوظ هو ما جاء منها مستقيماً غير مكسور، وما جاء خلاف ذلك من أخبار ادعي فيها أن النبي كسر وزنها، لا تخلو من متكلم أو من مطعن.

من هنا -ومن خلال مطالب هذا المبحث مجتمعة- تتضح معالم الاتجاه الأسلم الذي تميل إليه النفس في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾ [69: يس]، من أن النبي ﷺ كان عالماً بأساليب العرب اللسانية، ومنها الشعر، وأنه لم يكن يكسر أوزان الشعر، ولا يحسن أن يخفى عليه مثل ذلك، إلا أنه لم يتعاطاه ترفعاً.

ولعل مما يستأنس به -هنا- أن ادعاء المشركين بأن النبي شاعر، يشي بقوته ﷺ اللغوية القادرة على امتطاء جواد هذا النوع من الكلام لو أراده، لأنه لا يعقل أن يتهموه بشيء يظهر زيفه لأدنى ملابس، لذا اختاروا ما يمكن تصديقه عند العامة من وجه ما، كالسحر الذي يفرق بين المرء وزوجه، والأساطير التي تخفى على كثير منهم، وهكذا.

فلا شك -إذن- في أن تمثل النبي ﷺ بالشعر صفحة متلألئة من سلامة فصاحته، وكمال بلاغته ولا غرو.

الخاتمة: وتشمل النتائج والتوصيات.

أولاً: النتائج

1. توصل البحث إلى أن المفسرين اختلفوا في معنى آية الباب، وأن هناك أوجه اتفاق واختلاف بينهم، فذهب جلهم إلى ما أفاده ظاهر ألفاظ الآية، من أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن يحسن الشعر ولم يملك ذائقة شعرية تجعله في مصافّ الشعراء، وذهب قليلون منهم إلى أنه صلى الله عليه وسلم أوتي حظاً كبيراً من اللسان يجعله يتفوق على كل شاعر وبليغ، إلا أنه لم يتعاط مادته.
2. كشف البحث عن أن الدافع الأبرز في اختلاف تفسير آية الباب، هو تضارب الروايات في المقصود بها.
3. أبان البحث أن دفع موهم معنى آية الباب يكمن ابتداء في إعمال معاني الروايات الصحيحة المتعلقة بتفسيرها، وإهمال المردود منها.
4. أبرز البحث الوجه الراجح من أقوال المفسرين في معنى آية الباب -بحسب وجهة نظر الباحث- وهو أن النبي -عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم- وإن لم يكن شاعراً؛ إلا أنه لم يكن ليخفى عليه هذا الفن.

ثانياً: التوصيات

يوصي الباحث بمناقشة آراء العلماء الذين ذهبوا إلى عدم قدرة الرسول صلى الله عليه وسلم على إقامة أوزان الشعر، أو إنشائه، في كتب إعجاز القرآن، وفي غيرها من العلوم -سوى كتب التفسير- على غرار ما أنجز في هذا البحث.

الحواشي:

1- الحسين بن مسعود البغوي (ت:510ه)، معالم التنزيل في تفسير القرآن، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط1 ، 1420 هـ، 21/4.

2- محمد بن محمد بن حبيب البصري الماوردي (ت: 450ه) النكت والعيون، تحقيق: السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان، 30/5.

3 - عبد الحق بن غالب بن عطية (ت: 542ه)، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، المحقق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية – بيروت، ط1 - 1422 هـ 462/4.

4 - الزحاف: مصطلح عروضي، ومعناه: التغيير في الأجزاء الثمانية من البيت، إذا كان في الصدر، أو في الابتداء، أو في الحشو. ينظر: كتاب التعريفات، علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني (ت: 816ه)، ضبطه وصححه جماعة من العلماء بإشراف الناشر، دار الكتب العلمية بيروت -لبنان، ط1، 1403ه-1983م، 114.

5 - أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير (ت: 774ه)، تفسير القرآن العظيم، المحقق: سامي بن محمد سلامة، الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، ط2، 1420ه، 588/6.

6 - ينظر: المرجع السابق، 591/6.

7 - تفسير ابن عطية، 462/4.

8 - محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان (ت: 745ه)، البحر المحيط في التفسير، المحقق: صدقي محمد جميل، الناشر: دار الفكر – بيروت، الطبعة: 1420 هـ، 80/9

9 ينظر: تفسير ابن عطية.

10 - تفسير ابن كثير، 592/6.

11 - ينظر: محمد بن محمد بن مصطفى بن عثمان، (ت: 1156ه)، بريقة محمودية في شرح طريقة محمدية وشريعة نبوية في سيرة أحمدية، مطبعة الحلبي، الطبعة: د. ط، 1348ه، 27/4.

12- محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح **القرطبي** (ت: 671ه)، الجامع لأحكام القرآن = تفسير القرطبي
تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، الناشر: دار الكتب المصرية – القاهرة، ط2، 1384ه - 1964م،52/15.

13 - تفسير أبي حيان 81/9.

14 تفسير القرطبيّ، 14 / 212. وتفسير أبي حيان 81/9.

15 - تفسير ابن عطية، 462/4.

16 - إبراهيم بن عمر بن حسن **البقاعي** (ت: 885ه)، مَصَاعِدُ النَّظَرِ للإِشْرَافِ عَلَى مَقَاصِدِ السِّوَرِ، دار النشر: مكتبة المعارف – الرياض، ط1، 1408 هـ - 1987م، 193/1، فقد أطال البقاعي الكلام في تأييد هذا الاتجاه في كتابه مصاعد النظر، وينظر للاستزادة تفسيره: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، الناشر: دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، 16/ 164-171.

17 - الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء **البغوي** الشافعي (ت: 516ه)، شرح السنة، تحقيق: شعيب الأرنؤوط -محمد زهير الشاويش، المكتب الإسلامي - دمشق، بيروت، ط2، 1403ه - 1983م، 12/ 372.

18 - أحمد بن علي بن محمد بن أحمد **بن حجر العسقلاني** (ت: 852هـ)، التلخيص الحبير في تخريج أحاديث الرافعي الكبير، دار الكتب العلمية، الطبعة: ط2، 1419هـ 1989م، 275/3.

19 - عمر بن علي بن أحمد **ابن الملقن** الشافعي المصري (ت: 804هـ)، البدر المنير في تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في الشرح الكبير، تحقيق: مصطفى أبو الغيط وعبد الله بن سليمان وياسر بن كمال، دار الهجرة للنشر والتوزيع - الرياض-السعودية، ط1، 1425هـ-2004م، 374/7.

20 - أحمد بن الحسين أبو بكر **البيهقي** (ت: 458هـ)، السنن الكبرى، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط3، 1424 هـ - 2003م، رقم: 13291، 68/7. وينظر: ابن حجر العسقلاني، التلخيص الحبير، 276/3.

21 - محمد بن اسماعيل **البخاري**، صحيح البخاري، كِتَابُ الجِهَادِ وَالسِّيَرِ، بَابُ مَنْ يُنْكَبُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، رقم: 2802، 18/4.

22 - البخاري، صحيح البخاري، بَابُ الكَافِرِ يَقْتُلُ المُسْلِمَ، ثُمَّ يُسْلِمُ، فَيُسَدِّدُ بَعْدُ وَيُقْتَلُ، بَابُ التَّحْرِيضِ عَلَى القِتَالِ، رقم: 2834، 25/4.

23 - أبو عبد الله **الحاكم**، المستدرك على الصحيحين، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية – بيروت، ط1، 1411 - 1990 3750، 510/2.

24 - البخاري، صحيح البخاري، كتاب مناقب الأنصار، بَابُ أَيَّامِ الجَاهِلِيَّةِ، رقم: 3841.

25 - ينظر هذه الروايات في كتب التفسير ومنها: تفسير ابن كثير 588/6، تفسير عبد الرزاق، أبو بكر عبد الرزاق بن همام بن نافع الحميري اليماني الصنعاني (ت: 211هـ)، دار الكتب العلمية، دراسة وتحقيق: د. محمود محمد عبده، دار الكتب العلمية – بيروت، ط1، سنة 1419هـ، 86/3. وينظر جامع البيان في تأويل القرآن، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (ت: 310هـ)، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط1، 1420 هـ - 2000 م، 20/ 549. وينظر: تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم، أبو محمد عبد الرحمن بن محمد بن إدريس بن المنذر التميمي، الحنظلي، الرازي ابن أبي حاتم (ت: 327هـ)، تحقيق: أسعد محمد الطيب، مكتبة نزار مصطفى الباز - السعودية، ط3 - 1419 هـ، 10/ 3200. 135/8الثعلبي أبو حيان80/9.

26 - البخاري، صحيح البخاري، بَابُ مَقَامِ النَّبِيِّ ﷺ بِمَكَّةَ زَمَنَ الفَتْحِ، رقم: 4315، 135/5.

27 - نبيل سعد الدين سَليم **جَرَّار**، الإيماء إلى زوائد الأمالي والأجزاء - زوائد الأمالي والفوائد والمعاجم والمشيخات على الكتب الستة والموطأ ومسند الإمام أحمد، أضواء السلف، ط1، 1428 هـ - 2007 م563/6.

28- تناقلته بعض كتب التفسير والسير مقلوباً هكذا، ولم أجده في أي من كتب السنة، ينظر: 461/4 ابن عطية، لكن وجد في غيرها صحيح الوزن، ينظر: محمد بن جعفر بن محمد بن سهل بن شاكر الخرائطي السامري (ت: 327هـ) ، اعتلال القلوب، تحقيق: حمدي الدمرداش، مكة المكرمة-الرياض، نزار مصطفى الباز، ط2، 1421هـ2000م

29 - تفسير ابن عطية، 462/4.

30 - محمود بن عبد الله الحسيني **الألوسي** (ت: 1270هـ)، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، المحقق: علي عبد الباري عطية، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، ط1، 1415 هـ، 46/12.

31 - ينظر مثلاً: الفصل الخامس من كتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى، عياض بن موسى بن عياض بن عمرون اليحصبي السبتي، أبو الفضل (ت: 544هـ)، دار الفيحاء – عمان، ط2 - 1407 هـ، وأيضاً: البلاغة النبوية في كتاب: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مصطفى صادق بن عبد الرزاق بن سعيد بن أحمد بن عبد القادر **الرافعي** (ت: 1356هـ) دار الكتاب العربي – بيروت، ط8 - 1425 هـ - 2005م.

32 - تفسير الألوسي، 46/12.

33 - القاضي عياض، الشفا بتعريف حقوق المصطفى، 1/ 167.

34 - الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، 214- 215.

35 - أحمد بن الحسين **البيهقي** (ت: 458هـ)، السنن الكبرى، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنات، ط3، 1424 هـ - 2003 م، 279/9.

36 - مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، رقم: 1775، 1398/3. قال المحقق في الحاشية: "وهذه اللفظة من فصيح الكلام وبديعه الذي لم يسمع من أحد قبل النبي صلى الله عليه وسلم".

37 - محمد بن عيسى بن سَوْرة **الترمذي**، (ت: 279هـ)، سنن الترمذي، تحقيق: بشار عواد معروف
دار الغرب الإسلامي – بيروت، سنة النشر: 1998 م، رقم: 2213، 66/4.

38 - سيد **قطب** إبراهيم (ت: 1385 هـ)، في ظلال القرآن، الناشر: دار الشروق - بيروت- القاهرة، ط17- 1412 هـ 2975/5.

39 - ينظر: محمد عزت دروزة، التفسير الحديث، دار إحياء الكتب العربية – القاهرة، الطبعة: 1383 هـ 3/**39**.

40 - **البقاعي** (ت: 885هـ) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، 166/16.

41 - ينظر مثلاً كتبه: السُّمُوُّ الرُّوحِيُّ الْأَعْظَمُ وَالْجَمَالُ الْفَنِّيُّ فِي الْبَلَاغَةِ النَّبَوِيَّة هذا بحث وليس كتابا أنشأه الرافعي إجابة لدعوة جمعية الهداية الإسلامية بالعراق؛ لتنشره في ذكرى المولد النبوي سنة 1352هـ. وأيضاً: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية.

42 - الرافعي إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، 212.

43 - محمد رجب **البيومي**، البيان النبوي، مصر، دار الوفاء للطباعة، ط 1، 1987، 105.

44 -تفسير في ظلال القران2975/5،

45 - محمد عزت **دروزة**، التفسير الحديث [مرتب حسب ترتيب النزول]، الناشر: دار إحياء الكتب العربية – القاهرة، الطبعة: 1383 هـ 3/43.

46 - بل إن صاحب كتاب البيان النبوي عدّ هذا الموضع مأزقاً حين قارن بين توجيه الجرجاني والرافعي للخروج من الإشكال، فقال: "على أن عبد القاهر قد لجأ في هذا المأزق إلى تعليل غير تعليل الرافعي.." ينظر: البيومي، البيان النبوي، ص106.

47 - محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر **الطبري** (ت: 310هـ)، جامع البيان في تأويل القرآن، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط1، 1420 هـ - 2000 م، 549/20.

48 - البيهقي، السنن الكبرى، رقم: 13291، 68/7.

49 - شمس الدين الذهبي (ت: 748هـ)، الرواة الثقات المتكلم فيهم بما لا يوجب ردهم، تحقيق: محمد إبراهيم الموصلي، دار البشائر الإسلامية - بيروت – لبنان، ط1، 1412هـ - 1992م، ص166.

50 - محمد بن عيسى **الترمذي**، أبو عيسى (ت: 279هـ)، سنن الترمذي، تحقيق وتعليق: أحمد محمد شاكر وآخرين، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي – مصر، الطبعة: الثانية، 1395 هـ - 1975 م، 139/5.

51 - للتوسع ينظر: أرشيف ملتقى أهل الحديث – 2 تم تحميله في: المحرم 1432 هـ = ديسمبر 2010 م، رابط الموقع: http://www.ahlalhdeeth.com، 205/42، رقم: 24529.

52 - محمد بن محمد بن مصطفى الخادمي الحنفي (ت: 1156هـ)، بريقة محمودية في شرح طريقة محمدية وشريعة نبوية في سيرة أحمدية، مطبعة الحلبي، الطبعة: د. ط، 1348هـ، 27/4.

53 - ابن حجر، التلخيص الحبير 275/3

54 - البخاري، صحيح البخاري، 1422هـ، رقم: 4315، 135/5.

55 - دروزة، التفسير الحديث، 3/41-42.

56 - أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد **السهيلي** (ت: 581هـ)، الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام، تحقيق: عمر عبد السلام السلامي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة: ط1، 1421هـ/ 2000م، 7/ 63.

57 - تفسير ابن كثير، 589/6.

58 ابن العربي، أحكام القرآن، 4/ 22-25.